

## الأبعاد الحضارية لعرب الجزيرة العربية من وجهة نظر الآخر من خلال كتاب: ملاحظات عن البدو والههابيين لجون بوركهارت: الجزء الثاني دراسة لرحلة جون بوركهارت عام ١٨١٦م بأدوات النقد الثقافي

د. وائل بن يوسف العريني

تسعى الدراسة إلى تحليل رحلة جون بوركهارت بأدوات الخطاب التي تحمل وجهة النظر الأنثروبولوجية حيث تعد اللغة ثروة ثقافية قائمة على الكلام، وقد أظهرت الدراسة الأبعاد الحضارية للرحلة من خلال ما كتبه الرحالة في رحلته إلى الجزيرة العربية، كما عدت الدراسة الشأن الديني لدى الرحالة مكوناً رئيساً من مكونات الذات من خلال تتبع عقيدة القبائل ومقارنتها بما كان عليه السلف الصالح، كما أبرزت الدراسة النسق الاجتماعي المتعلق بحفظ الأمن ومعاقبة المعتدين، وكذلك احترام الحرية الشخصية، وهو ما أعطى صورة واضحة عن أدب الرحلة الذي يعد رصداً لمجتمع الجزيرة العربية.

The Cultural Aspects of the Arabs of the Arabian Peninsula from the Point of View of the Other as Seen in the Book: Notes on the Bedouins and Wahabys by John Burckhardt, Volume 2: A Study of John Burckhardt's Travels in 1816 Using the Tools of Cultural Criticism

**Dr. Wael ibn Yusef Aloraini**

The study seeks to analyze John Burckhardt's travels using discourse tools representing an anthropological point of view, for language is a cultural wealth based on words. The study showed the cultural aspects of the journey through what Burckhardt wrote about his journey to Arabia. In addition, the study demonstrates that religion was a major component of the traveler's self, as can be witnessed by his accounts of the religious beliefs of the tribes and their comparison with those of the pious forebears. Furthermore, the study elucidated the social system involved in the maintenance of security and the punishment of violators, as well as respect for individual liberty, all of which contributes to providing a clear picture of travel literature which portrays the society of the Arabian Peninsula.

(قدم للنشر في ١٤٤٣/١/٣٠هـ، وقبل للنشر في ١٤٤٣/٩/١١هـ)

Department of Rhetoric, Criticism and  
the Methodology of Islamic Literature.  
- College of Arabic - Imam Moham-  
mad Ibn Saud Islamic University

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب  
الإسلامي - كلية اللغة العربية -  
جامعة الإمام محمد بن سعود

wyaloraini@imamu.edu.sa

إن مما يذكي العقول وينميها النظر في تجارب الآخرين ورؤاهم المختلفة حول الأماكن وساكنيها، ولذا كانت الآداب السَّيرية محلاً لاهتمام كثيرين، سواء من يريدون المتعة والفائدة أو من يتعمقون في قراءة التجارب لرصد وجهات النظر وتحليلها في التخصصات الإنسانية المعنية بتحليل الخطاب والنظر الأنثروبولوجي تحديداً.

ولعل من جملة الآداب السيرية المثيرة للاهتمام، على الأقل لدى الباحث في هذا السياق، أدب الرحلة بما يحمله من طبيعة الرصد للذات والآخر على السواء، وامتياز تقديم المعلومة عن المختلف ودرجة التعايش معه أو رفضه أو تقديم وجهة النظر حوله، ومن ثم كانت الرحلات مرآة للذات والآخر على السواء، وضوءاً كاشفاً لمقدار تقبل الإنسان لأخيه الإنسان المختلف عنه مكاناً وثقافة وديناً ولغة أو بعضاً من ذلك.

وقد وقع الاختيار هنا على رحلة (جون بوركهارت) لفحصها بأدوات تحليل الخطاب والأنثروبولوجيا من منطلقات متعددة، أهمها أن الرحالة منذ البداية يضع عنواناً مفصلاً عن طبيعة رحلته ذات البعد الاجتماعي (البدو) والديني بما أسماه (الوهابيين) وهو يقصد السعوديين، وهي ملاحظات أيضاً بمعنى أنها رصدٌ مُحايثٌ يصدر عن رجل عايش مجتمعات الجزيرة العربية وكتب عنها في ارتحاله عبر الجزيرة العربية. كما أن الرحالة ادعى الإسلام، وسافر عبر الجزيرة باسم (الحاج إبراهيم)، وكان رسده في الرحلة مادةً مهمة اطلع

عليها الرحالة بعده مثل الإنجليزي (آرثر جون وافل) الذي حج عام ١٢٢٦هـ / ١٩٠٨م أي بعد مئة عام تقريباً من ارتحال بوركهارت (١٢٢٥-١٢٣٢هـ / ١٨١٠-١٨١٦م تقريباً)<sup>(١)</sup>.

وتتعلق هذه الدراسة في إطارها المنهجي من مدرسة تحليل الخطاب ذي وجهة النظر الأنثروبولوجية، فتقوم على تحليل الخطاب اللغوي في سياق الأنثروبولوجيا، والنظر للخطاب بوصفه ممارسة ثقافية يمكن دراسته الأنساق واستبطاها منه<sup>(٢)</sup>.

واللسانيات الأنثروبولوجية افتراض علمي يقوم على عد اللغة ثروة ثقافية، وتتشكل من خلال الكلام/ الخطاب لتكون ممارسة ثقافية بدلالاتها وطريقة بنائها وأنساقها المضمرة أو الظاهرة، واللغة والخطاب وجوه ثقافية للإنسان الاجتماعي<sup>(٣)</sup>. ومن خلال تحليل الخطاب نتوصل إلى تحليل الثقافة وأنساقها المختلفة، انطلاقاً من أن اللسانيات بمنهجها المختلفة مفاتيح يعبر من خلالها الباحث من بحث اللسان إلى ما قيل عبر اللسان وتفاعلاته تلك في أي وجه معرفي أو ثقافي كان<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: آرثر، جون وافل (الحاج علي الزنجباري)، رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام ١٢٢٦هـ / ١٩٠٨م، ترجمة ريم بو زين الدين، تحرير وتعليق: د. أحمد إبيش، هيئة أبو ظبي للثقافة والنشر: دار الكتب الوطنية - أبوظبي، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

(٢) ينظر: دورانتي، ألسندرو، الأنثروبولوجيا الألسنية، ترجمة فرانك درويش، المنظمة العربية للترجمة - بيروت، ١٤٢٤هـ / ٢٠١٣م، ص ٢١.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص ٢٢.

(٤) التميمي، جواد كاظم، اللسانيات الأنثروبولوجية: منظور معرفي =

والنسق (بالفرنسية syntagme, ordre) يطلق في بعض السياقات ليدل على النظام الكامن غير المعلن، وقد يكون النسق اجتماعياً وثقافياً أو سياسياً أو لغوياً أو جمالياً أو غير ذلك. ولكل نسق وظيفة يؤديها غالباً في بيئة النص أو المؤلف ومجتمعه أو عند الآخر ومجتمعه<sup>(٥)</sup>.

وفي الدراسات الثقافية تحديداً يقدم النسق وظيفة كبرى في كشف الأنظمة القارة في المجتمعات الإنسانية<sup>(٦)</sup> التي يتواضع عليها الأفراد دون اتفاق معلن، وتتنظم في ضوء ذلك كثير من التفاصيل الحياتية لديهم، في بناء الأسرة وتقاليد الضيافة وشكل الأحكام العرفية العامة، كما أن النسق يحكم الممارسات الثقافية التعليمية والتثقيفية، ويجري من خلاله نقل المعرفة غير المدونة وغير ذلك، راجحاً أن أوفق في رسم تصور الآخر عن الذات واستخلاص جملة من القناعات التي بثها في الكتاب.

= لدراسة بنية الثقافة العراقية، كنوز المعرفة - عمّان، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص ٤٤. ولهذا يطلق على هذه الممارسة اسم: النقد الثقافي أيضاً.

(٥) ينظر: المسدي، عبدالسلام، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، د. ط، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٦١.

(٦) اقترح د. عبدالله الغدامي إضافة وظيفة سابعة للوظائف الست عند جاكسون، وهذه الوظيفة هي الوظيفة النسقية، يضطلع بها النقد الثقافي تحديداً؛ لأنه يهتم بالمضمرة في النصوص والخطابات، ويستقصي اللاوعي النصي، وينتقل دلاليًا من الدلالات الحرفية والتضمينية إلى الدلالات النسقية. ينظر: الغدامي، د. عبدالله، النقد الثقافي، ص ٦٥.

### التعريف بالرحالة ومدونة البحث:

هذه الرحلة قام بها الرحالة: جوهن لويس بوركهارت (j.l. Burckardt) ١١٩٩-٢٣٢هـ (١٧٨٤-١٨١٧م). وهو رحالة سويسري مختص في الكيمياء، درس في إنجلترا، ثم سافر إلى حلب وبها تعلم اللغة العربية وقرأ القرآن الكريم وتفقه في الدين الإسلامي وأسلم عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م. وأمضى بقية حياته في البلاد العربية واكتشف مدينة البتراء عام ١٢٢٦هـ / ١٨١١م.

عندما أسلم اختار لنفسه اسم إبراهيم بن عبد الله، وحج عام ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م وبقي في مكة ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى القاهرة وبها توفي ودُفن فيها وكتب على شاهد قبره العبارة الآتية: "هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى: الشيخ الحاج إبراهيم المهدي بن عبد الله بركهت اللوزاني، ولادته ١٠ محرم ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م وتاريخ وفاته رحمه الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١١م"<sup>(٧)</sup>.

له عدد من المؤلفات منها:

- ١- الرحلة إلى بلاد الشام.
- ٢- رحلة إلى الجزيرة العربية.
- ٣- سجلات أسفار في الشرق الأدنى والاتصال بالببدو الوهابيين<sup>(٨)</sup>.

(٧) مراد، د. يحيى، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية -

بيروت، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ص ٢٨٦.

(٨) هذا الكتاب الذي نعالجه في البحث، ويبدو أن العنوان قد عدل أو

ترجم ترجمة مغايرة.

- ٤- مجموعة الأمثال العربية متناً وترجمةً وشرحاً.  
٥- الرحلات النبوية<sup>(٩)</sup>.

أما مدونة البحث التي تحمل عنوان: (ملاحظات عن البدو والوهابيين: جرى جمعها خلال التجوال في الشرق) فقد صدرت ترجمتها العربية بهذا العنوان من إصدارات المركز القومي للترجمة في جمهورية مصر العربية، وقام على الترجمة والتقديم الأستاذ: صبري محمد حسن، وراجع الكتاب الأستاذ محمد صابر عرب. وقد صدرت الطبعة الأولى للكتاب من جزأين في عام ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

وهذا البحث يتناول بالفحص الجزء الثاني المتعلق بتطواف الرحالة بين القبائل في الجزيرة العربية شمالاً ووسطاً وغرباً، أما الجزء الأول فقد طرح فيه الرحالة موضوعات اجتماعية وأنثروبولوجية تتسق مع مهمته الإثنولوجية التي قام بها، فتناول فيه العادات وطرائق الحياة ومكونات البيت البدوي (الخيمة)، والطعام والصناعات والعلوم والموسيقا والأمراض والتعليم ونظام الأسرة والحياة الرعوية والنباتية، وبعض المزايا كإكتفاء الأثر والكرم وغير ذلك. وقد تجاوزت هذا الجزء لما فيه من المباشرة والتقريرية والعموميات في بادية الشام والعراق والجزيرة، ويهمني في هذا البحث تناول الذات الخاصة/ السعودية وأصولها القبلية في تلك الفترة التي ارتحل إليها الرحالة.

(٩) هذه الترجمة المختصرة ألفتها من كتاب: معجم أسماء المستشرقين، ينظر: ص ٢٨٥-٢٨٦، ومن مقدمة مترجم الرحلة، ينظر: ملاحظات عن البدو والوهابيين، ترجمة: أ. د. عبدالله العثيمين، ص ١٦-٢١.

وتتميز الرحلة من جهة تاريخية بأنها حدثت في وقت كانت فيه الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية مضطربة نتيجة الحملة العثمانية على نجد وتفكك الدولة السعودية الأولى، واستقلال الإمارة في حائل على يد أبناء علي من شمر، ومن ثم فإن هذه المرحلة قد أتاحت للرحالة أن يقرأ الاختلاف بين القبائل والتمايز بين فروع القبيلة الواحدة، ويقف على العادات والمكونات الحضارية والسير الشعبية التي تغذي المخيال الجمعي وتكسب القبائل الاعتداد اللازم والحمية القبلية المعروفة<sup>(١٠)</sup>.

وفي المباحث الآتية نتأمل شكل الخطاب الصادر عن هذا الرحالة تجاه الذات/ القبائل التي تكوّن الجزيرة العربية، وشكل تدينها بعد انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب انطلاقاً من الخطاب المنجز ودلالاته الثقافية، وما يمكن أن يتعلق به من وجهة نظر الكاتب/ الآخر:

### أولاً: صورة الذات عند الآخر

يهدف هذا المبحث إلى تلمّس صورة الذات عند الآخر من خلال الخطاب الرحلي المنجز، وكيف استكشف الآخر هذه الذات، وهل كان يعي اختلاف الذات تبعاً لاختلاف القبيلة والبيئة التي تتحرك فيها؟ وأثر ذلك كله في الخطاب المكتوب تقنيّةً وأداءً، خصوصاً بعد أن جرى نقل الخطاب إلى اللغة العربية وأصبحت الملحوظات مرآة مقروءة من قبل الذات في العصر الحاضر.

(١٠) سعيد، أمين، تاريخ الدولة السعودية، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط، د. ت، ١/١٣١-١٣٢.

ونعني بالذات هنا كل ما عدا الآخر، وهذا الذي انطلقنا منه في التمهيد أعلاه، فكل من قطن بالجزيرة العربية وكان من أهلها أو ممن يعيشون على أرضها يعد جزءاً من الذات التي حمل الرحالة على عاتقه أن يدون عنها تلك الملحوظات الدقيقة، ونحن إذ نقول هذا نستحضر وجهة نظر الرحالة، الذي ينطلق من هذه المنطلقات، ويصف كل ما وجده من مظاهر أو أبعاد حضارية على أنها تخص ساكني الجزيرة العربية وأهلها.

وقبل الشروع في عرض بعض التفاصيل عن هذا التصور، وبطبيعة الحال أقول (بعضاً) لأن هذه الورقة لا ترصد كل ما قيل، أشير هنا إلى أن الرحالة يركز على الاختلاف كثيراً، ولكنه لا يسهب في استقصاء التفاصيل، وهو ما يؤكد مهمة الرحالة الأساس في الاستشراق وجمع المعلومات المهمة عن مكونات المجتمع في الجزيرة العربية في هذه الفترة التي عاصرت أواخر الدولة السعودية الأولى وبداية عصر التمزق والفوضى بعد سقوطها وتخريب الدرعية.

حين وصل الرحالة تخوم الجزيرة من الجهة الشمالية كان يعي طبيعة التكوين الاجتماعي للجزيرة، وأنه يقوم على القبيلة وتفرعاتها الطبيعية وانطلاقها من نسق مهيم من قوامه المشيخة والانصياع لرأي كبير القوم وذوي الرأي فيهم، ومن أوائل القبائل التي رأى فيها ذلك قبيلة أو فرع الجلاس من قبيلة عنزة المشهورة، حيث رأى تفردهم بالنفوذ في شمال الجزيرة وبسطهم سلطانهم بالقوة، حتى إنهم قد فرضوا الإتاوة على الحجاج المارين بهم في طريق الحج، إضافة إلى



تمتعهم بحق الرعي في تلك المناطق الشاسعة وقت الشتاء. وفروع الجلاس التي وجدها الرحالة هي:

١- الرولة: ويتفرع هذا الفخذ إلى بطون: القطيسان، الدُّغامة، الفريج، النصير.

٢- المحلف: ويتفرع إلى بطون: العبدالله، الفرشة، البدور، السوامة.

ومن الملحوظ أن الرحالة لم يعين شيخ الرولة وعين شيخ المحلف واسمه المعجل، ولعل هذا سهو منه؛ لأنه فيما يأتي سيورد ذكر الشعلان وسلطتهم على المكان ولا سيما منطقة الجوف حالياً<sup>(١١)</sup>، وهكذا يجري ذكر كثير من القبائل وفروعها أحياناً بتعيين الشيخ المعاصر للرحالة، وأحياناً لا، وفي ظن الباحث أن الرحالة يتجاوز ذكر الشيخ نسياناً أو لأنه لم يخالط تلك القبائل بل نقل عنها سماعاً.

يلحظ في نصوص الرحالة الاختصار والتعميم، مثل قوله: "وشيخ السلقا ابن هذال [أي شيخ السلقا من بني بشر] المناصر القوي للوهابيين، وكان حاضراً تقريباً في كل معركة دارت في الحجاز من عام ١٢٢٧-١٢٣١هـ / ١٨١٢-١٨١٥م ضد جيش محمد علي. وبفضل جهوده - بصفة رئيسة - أوقف

(١١) الرحلة، ص ٣٠٠. وقد أورد الرحالة تفرعات عرب السلقة في الأحساء، والجعافرة من آل سليمان، والسباع ص ٣٠٢، والبلوات ص ٣١٠، والهتيم ص ٣١١، وقبيلة عيس ص ٣١٢، وجهينة ص ٣١٢-٣١٣، وشمر وتكويناتها ص ٣١٤-٣١٥، والأعراب في بادية القصيم ص ٣١٥-٣١٧، وقبيلة مطير الشهيرة ص ٣١٧-٣١٨، ويطون حرب بين القصيم ومكة والمدينة ص ٣١٩-٣٢٢، وبدو مكة ص ٣٢٣-٣٢٦، وقبيلة ثقيف ص ٣٢٧، وقبيلتي قحطان والدواسر ص ٣٢٨.

تماماً تقدّم طوسون باشا من المدينة إلى القصيم في ربيع  
١٢٣١هـ / ١٨١٥م<sup>(١٢)</sup>.

فأسلوب التعميم هنا لا تغلب على الظن دقته في كل  
المعارك، وإرجاع الفضل للشيخ وحده في وقف تقدم الوالي  
التركي وصدّه عن منطقة القصيم كاملة أمر لا يتصور حدوثه  
بهذا الشكل المبالغ فيه، إذ الدولة لها جيش كامل، وإسهام  
هذا الشيخ يأتي ضمن القوات الزاحفة في كل حين حسبما  
سيذكر الرحالة نفسه في آخر الكتاب<sup>(١٣)</sup>.

وقد يتوصل الرحالة إلى استنتاجات غريبة لا تظهر فهمًا  
دقيقًا للواقع القبلي في الجزيرة العربية، فمع أن الرحالة يعي  
وجود نسق التفاضل بين القبائل وتمييز بعضها عن بعض  
فإنه حين جاء على وصف قبيلة الهتيم في الحجاز قرب  
مدينة الوجه وصف انتشارهم في الجزيرة من الشمال إلى  
اليمن، ثم استنتج فقال: "ولعلمهم لهذا الشتات أصبحوا أقل  
تقديرًا من أي قبيلة أخرى"<sup>(١٤)</sup>. ولا أدري ما علاقة الشتات  
بسبب الارتحال، الذي هو طبيعة بدوية بامتياز، بما يشاع عن

(١٢) الرحلة، ص ٣٠١.

(١٣) لاحظ أسلوب التعميم في هذا النص الذي جاء مباشرة بعد النص  
السابق: "أما عرف الفدعان فقد أصبحوا أخيراً أقوياء جداً، وهزموا  
الحسنة، الذين كانوا تحت زعامة مهناً، في كثير من المواجهات على  
الحدود السورية". ص ٣٠١، (أخيراً) كذا في إطلاق زمني يعقبه تعميم  
معلوماتي (هزموا الحسنة في كثير من المواجهات). فلا الاستطاعة  
واضحة المعالم، ولا الكثير هنا دقيق على الرغم من دقة الرحالة في  
كثير من المعلومات العددية كما سيأتي.

(١٤) الرحلة، ص ٣١١.

التهييم حسب كلام الرحالة، لا سيما أن الرحالة لم يسند هذا الرأي لأحد، بل تعمد توهين الفكرة بقول (لعل) وكأنه غير مقتنع أيضاً باستنتاجه!

وقد يتتبع الرحالة القبيلة الواحدة ليبين الاختلاف في مهنة أبنائها وحجم الاختلاف بينهم، فعندما جاء على ذكر قبيلة (جهينة) - العظيمة كما وصفها - قال: "وتبدأ منازل قبيلة جُهينة العظيمة مُمتدة على طول ساحل البحر إلى ما دون ينبع، وشرقاً إلى هُدَيَّة المحطة التي على طريق الحج السوري. ومن ينبع، باتجاه المدينة، تملك هؤلاء الجهنيون الأرض إلى مسافة تُقدر بمسيرة اثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة. ولهم، أيضاً، أودية ينبع النخل المزروعة وقسم من هذه القبيلة مزارعون، لكن العدد الأكبر منها ما زالوا بدواً. والجهنيون يُكوّنون القسم الرئيس من سكان ينبع. ومع أنهم لا يملكون من الخيل إلا عدداً قليلاً فإنهم يستطيعون أن يمتلكوا قوة تصل إلى ثمانية آلاف بندقية فتيل. وهم في حرب دائمة هم وجيرانهم من قبيلة حرب"<sup>(١٥)</sup>.

إن طبيعة (جهينة) المختلفة علامة مميزة لا يجدها الرحالة كثيراً في قبائل البادية في الجزيرة العربية، إنها قبيلة تتوزع بين حياة الحاضرة والزراعة، وأخرى بادية يرتحلون مع قطعانهم على نحو دائم، مع تسجيل حقيقة أن القسم المرتحل أكبر بكثير من الجزء المشتغل بالزراعة الحال في ينبع النخل وما جاورها.

(١٥) الرحلة، ص ٣١٢-٣١٣.

والنص السابق علامة مميزة على حرص الرحالة على الدقة في تصوير قوة الذات ونقطة تفوقها على جيرانها، إنها قوة السلاح البالغة ثمانية آلاف بندقية، وهو ما يجعل القبيلة في حرب دائمة وقوة لا يستهان بها في مواجهة جيرانها من قبيلة حرب. كما أن النص السابق يعد صورة صحيحة عن الرحالة المتعلق بالقوة المادية دائماً، فهو يقرن دائماً التفوق والقوة بعدد الخيل والبنادق الفتيلية (يبدو أنها أفضل ما صنع في تلك الفترة أو هي أفضل ما وجد في الجزيرة العربية بما يجعل الرحالة لا يذكر غيرها في كل السياقات)<sup>(١٦)</sup>. ويلحظ هنا أنه متعجب من تفوق جهينة وقوتها على الرغم من قلة الخيول، ويعزو هذه المعلومة إلى قول الناس، وكأنه يوهن هذا الخبر لما يعضده من قلة الخيول؛ لا سيما أنه في مواقف أخرى يعدد الخيول وينسبها ويعدها أصلاً في التفوق وعلامة على البعد الحضاري كما سيأتي.

(١٦) تسمى بندق أبو فتيل، "سميت بذلك نسبة إلى القطعة الرئيسة والأهم فيه، وهي "الفتيلة"، وهذا النوع من البنادق تستخدم البارود أيضاً الذي يوضع داخل الجزء القريب من الفتيلة عبر فتحة صغيرة يطلق عليها اسم "القف" وتكون متصلة بالجزء الأخير من البندقية ويسمى "القانس"، حيث تشعل الفتيلة بالنار ويركز على الهدف عبر "العلم" الذي يكون في مقدمة فوهة البندق لتسهيل عملية القنص والصيد للرامي". وكالة الأنباء السعودية، ١٦/١٠/١٤٣٩هـ - (٢٠١٨/٦/٣٠م)، وعنوان الصفحة على الشبكة العنكبوتية بتاريخ ٢٤/٨/١٤٤٣هـ: <https://www.spa.gov.sa/1780448>

يبدو أن البندقية الفتيلية قديمة وتتميز بسهولة صنعها يدوياً، وهو ما يفسر انتشارها وقت الرحلة وأصلها يعود إلى القرن الخامس عشر حين اخترع العثمانيون المدفعية.

وفي موقف آخر يصل الرحالة إلى قناعة واحدة بشأن بدو الجزيرة العربية كلهم، بما يعد من قبيل التشابه أو التماثل بينهم، وهذه القناعة هي ارتباطهم بنجد ومنطقة القصيم تحديداً، فيقول: "يندر أن تكون أي قبيلة من قبائل الصحراء العربية ليست لها مضارب في نجد [يقصد القصيم هنا]. وسكان جميع المدن والقرى في تلك البلاد ينحدرون من قبائل بدوية يشبهونها كثيراً في عاداتهم وأعرافهم"<sup>(١٧)</sup>.

إن تعميم النص هنا لا يخلو من الخطأ حتماً؛ لأن الرجل يقول في مواقف كثيرة إنه يسمع من القبائل وعنهما أكثر مما يخالطها، ولكن، وهذا هو المهم هنا، فإن الرحالة يختصر عادات الذات في كلمتين معبرتين هما (العادات، والأعراف)، بما يشمل الأنساق كلها؛ في التعاملات الاجتماعية (الأعراف) والسلوكيات الفردية (العادات)، وهذا التصور العميق ورصد التشابهات الدقيقة من مهام الباحث الإثنولوجي<sup>(١٨)</sup> التي اضطلع بها الرحالة في أكثر من موقف ومقام، وتبدو في أكثر من خطاب وسياق، وشاهد التقارب وربما التطابق هنا يبدو في التجاور المكاني في منطقة القصيم، وقيام المخيم التابع لكل قبيلة بمنزلة حضور عضوية دائمة في مجمع القبائل في نجد، حتى غدا المخيم في بلدة القصيم بمنزلة سيمياء

(١٧) الرحلة، ص ٣١٥.

(١٨) الإثنولوجيا هي: "دراسة مقارنة لأوجه الاختلاف والاتفاق بين الحضارات، لاستنباط تعميمات حول أصولها وتطورها وتنوعها، وهي فرع عن الأنثروبولوجيا". سليم، د. شاكر مصطفى، قاموس الأنثروبولوجيا: إنكليزي - عربي، جامعة الكويت، الكويت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٢١٤-٢١٥.

الاتفاق<sup>(١٩)</sup> بينهم وعلامة إمكان التجاور المثمر والتقارب الاجتماعي المسالم بين قبائل الجزيرة كلها.

ومن مكملات تصور الآخر/ الرحالة عن البدو في الجزيرة العربية تصوره الخاص عن قبيلة حرب، التي رأى فيها الرحالة كثرة طاغية وعلامات مميزة لم يجدها في غيرها، فقبيلة حرب تستطيع الاتفاق بين بطونها وتكوين جيش واحد إذا لزم الأمر، "وهكذا هي قوة فروعها الرئيسية [يقصد كل بطن من بطون حرب] بحيث يمكن أن تُعد كل واحدة منها قبيلة مستقلة. ومع ذلك فإن الروابط التي تربط المجموعة كلها أقوى من تلك التي تتوحد بها فروع عَنَزَة الكثيرة"<sup>(٢٠)</sup>.

ويعد الشأن الديني مكوناً من مكونات الذات يجب عدم إغفاله، وهو ما يعرج عليه الرحالون على اختلاف توجهاتهم وأهدافهم<sup>(٢١)</sup>، والرحالة جون بوركهارت لا يخرج عن هذا

(١٩) السيميائية: مدرسة في تحليل الخطاب تقوم على فرز العلامات وتحليلها في الخطاب، ليتوصل منها إلى الكيان الظاهر الذي يراد معرفته، أو الموضوع المعرفي، أو مجموع الوسائل التي تفيد في معرفة هذا الموضوع. ينظر: قريماس، ألجيرداس جوليان، وجوزيف كورتيس، السيميائية: المعجم المعلن في نظرية اللغة، ترجمة: د. أحمد الودرني، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ص ٤٧٨.

(٢٠) الرحلة، ص ٣١٨.

(٢١) ينظر مثلاً: رحلة الحج إلى نجد والتقاطة الرحالة آن بلانت للحظة الدعوة إلى الصلاة وتفاوت استجابة الناس لها في الجوف وغيرها من البلدان التي زارتها فيما بعد، ينظر: بلنت، آن، الحج إلى نجد: مهد العرق العربي، ترجمة صبري محمد حسن، تقديم ومراجعة: رؤوف عباس حامد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ١/٤٨، ١٤٧، ٢٣١.

الإجماع الضمني، فقد تتبع العقيدة الدينية عند مختلف القبائل ووجد أنها لا تختلف عن عقيدة السلف من الأمة، وأنه يمكن أن يقال باختصار شديد إن ديانة السعوديين ديانة إسلامية تطهيرية، وإن حكومتهم حكومة بدوية رئيسها الأكبر هو قائد الأمة السياسي والديني الذي يمارس سلطته بالأسلوب نفسه الذي مارسها به خلفاء محمد ﷺ تجاه أتباعه المؤمنين<sup>(٢٢)</sup>. ويقول أيضاً بما يدل على عمق في فهم الحركات الدينية وما يحصل لها عادة وكيف نشأت الدعاية المغرضة: "لم تكن مبادئ محمد بن عبد الوهاب مبادئ ديانة جديدة؛ بل كانت جهوده مُوجَّهة فقط لإصلاح المفاصد التي تفتشت بين المسلمين ونشر العقيدة الصافية بين البدو الذين كانوا مسلمين اسمياً، لكنهم جهلاء بالدين وغير مباليين بكل فروضه التي أوجبها. وكما هي حال كل المصلحين لم يفهم محمد بن عبد الوهاب من قبل أصدقائه ولا من قبل أعدائه. فأعداؤه حينما سمعوا بفرقته الجديدة التي تهاجم انحراف الأتراك وتنظر إلى نبيهم محمد ﷺ بغير نظرتهم التقديسية اقتنعوا بسهولة أن عقيدة جديدة قد اعتنقت، وأن الوهابيين لذلك ليسوا مُجرِّد ضالين بل إنهم كافرون. وقد تأكد لديهم هذا الاعتقاد أولاً بخداع شريف مكة غالب، وثانياً بنذير الخطر الذي حلَّ بكل الباشوات المجاورين"<sup>(٢٣)</sup>.

لقد جاء خطاب الرحالة محدداً وصريحاً، وهو ما يجعل المطلع والمتتبع يلمس حرص الرحالة على تفهم أسباب

(٢٢) الرحلة، ص ٣٦٣.

(٢٣) الرحلة، ص ٣٦٧-٣٦٨.

الخلافاً والتعمق فيه، وعدم الاكتفاء، كما هي العادة عنده، بما يشاع عن الدعوة الإصلاحية أو عن منشأ الخلافاً أو حتى عن الأحداث التي يزعم حدوثها من مذابح وغيره.

أخيراً فإن الرحالة وجد أن من واجبه، وهو ينقل تصوره عن الذات اجتماعياً ودينياً، أن يسجل شهادته وفق ما سمع ونما إلى علمه حول أحداث الحج في العام الذي ضم فيه الحجاز إلى الحكم السعودي في الدولة السعودية الأولى، حيث أشيع بأن أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب منعوا الحجاج من خارج الجزيرة العربية بسبب ما يصطحبونه معهم من بدع المحمل وغيره، يقول الرحالة: "لم يرفض السعوديون السماح للحجاج من كل البقاع بدخول البلاد المقدسة. بل إنهم كثيراً ما عرضوا عليهم علناً الإذن لهم بعبور سلمي بشرط أن يتصرفوا بلياقة، وألا يتظاهروا بأي نوع من التفوق في تلك البلاد، التي جعلت منها نزعتها الطبيعية وشخصية سكانها وموقعها الجغرافي منطقة عربية لا منطقة تركية"<sup>(٢٤)</sup>.

ومن الملحوظ على الرحالة أنه ينقل تصوره عن البدو والحالة الدينية بأسلوب التعميم والخطاب الشامل، ولا يرد في الخطاب تخصيص لحالات فردية أو عادات خاصة واضحة يمكن أن تكون تصوراً عميقاً يعوّل عليها كثيراً، وما مضى يعد من قبيل الملاحظات العمومية كما ذكرت.

وإذا كان الشأن في نقل التصور بهذا العموم، فإننا سنجد الخطاب الراصد للمرأة قليلاً، وربما كان سبب قلة هذا



الخطاب ما تتمتع به المرأة العربية من خفر وحياء وابتعاد عن الظهور ولا سيما أمام الغريب، كما أنه يصعب على الغريب أن يسأل عن أحوالهن في الجزيرة العربية، خصوصاً حين يكون الرحالة أعزب وبلا أسرة ترافقه، وهو ما يجعل الولوج إلى المجتمع النسوي والسؤال والتحاوُر أمراً متعذراً، بل إن سؤال الرجل العربي عن أهله دون داع واضح مدعاة للتوجس والتجاهل<sup>(٢٥)</sup>. وقد عثرت على موضعين يذكر فيهما الرحالة معلومات عن النساء في بعض القبائل التي رآها أو سمع عنها، وأول موضع جاء عند ذكر الجعافرة من ولد سليمان (البشر) وطبيعة نسائهم الخصيبة فقال: "ويمكن أن يقال: إن النساء المنحدرات من قبيلة الجعافرة هذه مشهورات في مصر وفي الجزيرة العربية على حدٍ سواء بأنهن يلدن توائم في كثير من الأحيان"<sup>(٢٦)</sup>. وفي الموضع الثاني قال عن نساء الهتيم: "ونساء هُتيم مشهورات بالجمال"<sup>(٢٧)</sup>.

وكما ذكرت فإن ملحوظات الرحالة يشوبها التعميم والغرابة، خصوصاً تعريجه على مسألة ولادة التوائم عند الجعافرة، ولعله بنى خطابه على ما يشاع ويرد في الأحاديث العابرة

(٢٥) أشرت إلى رحلة الحج إلى نجد قبل صفحتين تقريباً وهي رحلة مطبوعة في جزأين، وتتميز الرحلة بقدرة الرحالة (آن بلانت) على الولوج إلى المجتمع النسوي والحوار، بل قامت بدور الباحثة عن زوجة لأحد أفراد الرحلة من قبيلة العروق في تدمر. ينظر: بلانت، آن، الحج إلى نجد: مهد العرق العربي، ترجمة صبري محمد حسن، ١٥٧/١-١٥٥/١.

(٢٦) الرحلة، ص ٣٠٢.

(٢٧) الرحلة، ص ٣١١.

دون تمحيص أو تأكيد، ولا سيما حين جزم بتماثل الصفة بين بنات القبيلة وإن اختلف مكانهن في الجزيرة ومصر، مع أنه لم يجزم بأن الجعافرة في مصر هم من القبيلة التي في الجزيرة نفسها، ومن ثم فإن الفكرة المتفرعة عن هذا الأصل المظنون تكون في منزلة أقل من الظن أو لنقل: الظن الواهي.

وما يتعلق بنساء الهتيم وأنهن جميلات فقد كان الرحالة أكثر دقة في نقل المعلومة فقال (مشهورات) أي أن ذلك إشاعة بلَغته من البُعد دون تحقيق أو سند ظاهر، ومن ثم فإن الرحالة يصف هذه القبائل على البعد ولا يصرح بالوصول إليهم ومخالطتهم.

لقد رصد الرحالة في تصوره عن القبائل معظم ما أورده من معلومات، وتميز خطابه بالعموميات وجمع المتشابهة ومحاولة تذكير القارئ بالنظائر بين القبائل، مما يؤكد طبيعة ارتحال الرحالة وغرض الاستشراق المعلوماتي الذي يهتم بالمسح لمعرفة من يسكن الجزيرة، وبم يتميز، وما مقدار علاقات القبائل فيما بينها، وإلى أي حد تعد القبائل متفقة ومتوافقة أو مختلفة متناحرة، إضافةً إلى المقياس الديني الذي لم يغفله الرحالة وحاول إضافته أحياناً عند بعض القبائل، مع الإشارة إلى إنصافه في تلمس حقيقة الدعوة الإصلاحية وعدم الاكتفاء بما يشاع أو يقال عنها خارج حدود الجزيرة العربية مما يعد إشاعات مغرضة أو عدوانية أو ربما تحريضية أيضاً.

### ثانياً: الأبعاد الحضارية للذات<sup>(٢٨)</sup>

إن انطلاق رحالة غربي في هذا الفضاء المجهول من الجزيرة العربية، والسعي وراء تحصيل أكبر قدر ممكن من المعلومات الاستشراقية/ الاستخباراتية، ليحتم عليه أن يتتبع كل ما يمكن رصده وتدوينه من مظاهر الحضارة المادية والثقافية عند الذات، وألاً يفوت أي ملحوظة صغرت أو كبرت في هذا السياق، ولا سيما ما يتعلق بالنسق العام والعادة المتأصلة، والعرف المتبع في قطر أو بلدة أو عدة بيئات داخل الجزيرة.

من أبرز هذه الأبعاد الحضارية التي يجدها الرحالة جديرة بالتدوين طبيعة العمل في القبيلة الواحدة، إذ يقف عند القبائل التي يعمل أبناؤها في عمليتين أو أكثر ليقدم ملحوظته حول هذه الأعمال ومقدار العاملين بها من أبناء القبيلة بألفاظ العموم (أكثر، أقل، غالب، قليل) لكن هذه العبارات التقديرية لها قيمتها في معرفة اعتماد كل قبيلة على نفسها أو على غيرها في الحياة والتعايش.

(٢٨) الحضارة هي كل أشكال أنسنة الإنسان في المجتمع، بمعنى أنها المظاهر التي تعين الإنسان على الحياة الاجتماعية وتصره فيها، وتعد الحضارة حالة متطورة للحياة الإنسانية. ينظر: مفاتيح اصطلاحية جديدة: بينيت، طوني، ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص ٢٩٩-٣٠٠. والمقصود هنا رصد كل هذه الأبعاد الحضارية التي وجدها الرحالة في الجزيرة، كالعامل ومصادر الدخل وبناء المجتمع والتبادل المادي أو المعرفي بين القبائل وداخل المجتمع الواحد.

في قبيلة جهينة مثلاً وقرب ينبع رأى الرحالة أن قسماً "من هذه القبيلة مزارعون، لكن العدد الأكبر منها ما زالوا بدواً... ومع أنهم لا يملكون من الخيل إلا عدداً قليلاً فإنهم يستطيعون أن يمتلكوا قوة تصل إلى ثمانية آلاف بندقية فتيل. وهم في حرب دائمة هم وجيرانهم من قبيلة حرب"<sup>(٢٩)</sup>. ويقول عن قبيلة شمر: "بعضهم (الشمر) بدو، وبعضهم مزارعون"<sup>(٣٠)</sup>. ويقول عن فروع قبيلة حرب: "(djenayne)"<sup>(٣١)</sup> وبعض هؤلاء حاضرة ومزارعون للحقول التي بين التلال شرق المدينة.. وقليل منهم حاضرة. وعندهم بعض مصادر مياه في المواقع الخصبة، حيث يزرعون القمح والشعير، لكنهم ما زالوا يعيشون في خيام ويقضون معظم السنة في الصحراء"<sup>(٣٢)</sup>.

نلاحظ هنا في النص عدداً من التفاصيل التي تختلف باختلاف المتحدث عنهم، فبعض القبائل لا يستطيع الرحالة أن يحدد أعمالهم سوى ما كان شائعاً من الإغارة، أما القبائل أعلاه ففيها نوع من التنوع في مصادر الدخل والأعمال، والزراعة تعد الجانب الأول من جوانب التنوع الذي فيما يبدو لم يجد الرحالة غيره في هذه القبائل، ولكنه جانب أيضاً متفاوت بين العموم والقلة والتميز، ففي قبيلة جهينة نجد القلة من الزراع ولهم النخيل في ينبع النخل كما ذكر الرحالة، لكن الأغلب هم من البادية الذين يمتنون الحرب والعراك الدائم

(٢٩) الرحلة، ص ٣١٢-٣١٣.

(٣٠) الرحلة، ص ٣١٤.

(٣١) يرى المترجم أن اسمهم (الحنانية) ووقع تصحيف في نسخة

الأصل. ينظر هامش (١) ص ٣١٩.

(٣٢) الرحلة، ص ٣١٩.

وتقوم مكاسبهم وحياتهم على تلك المعارك الدائمة، كما أن قبيلة شمر تبدو من هذا النوع مع عدم وضوح القسمة بين الحاضرة والبادية منهم، أما الجنائنة ففي الحديث عنهم نوع إسهاب بذكر أراضيهم الزراعية، وامتلاكهم وسائل الري بين منطقة الحجاز وتخوم نجد كما يبدو، ومحاصيلهم الزراعية للغذاء وعلف الماشية تحديداً ولم يبدُ أنهم أهل نخل وتمر. لقد كان رصد تنوع العمل في القبائل نادراً؛ إما لأن الرحالة لم يجد هذا التنوع حاضراً في القبائل التي تحدث عنها وقد تحدث عن معظم قبائل نجد والحجاز، أو لأنه لم يجد الوقت الكافي لجمع المعلومات منهم خوفاً على نفسه مثلاً أو استعجالاً وكسباً للوقت، المهم أن الرحالة يقيم وزناً لتنوع الأعمال ويجعلها أساساً في التعريف بالقبائل، ويهمه أن يعرج على طبيعة القبيلة من حيث حرصها على الحرب وامتلاكها السلاح أو عملها بالزراعة، أو كسبها من الحجاج وفرض الإتاوة للمرور والحماية حين الدخول في أراضيهم كما أشار بذلك عند حديثه عن قبيلة حرب.

إن تصنيف العمل المتنوع من أصناف العمل الحضاري جاء بالنظر إلى أن الحضارة الإنسانية قامت على تنوع العمل لتسخير الجهود والتعاون في بناء المجتمعات، وما تأريخ الحضارة الإنسانية وتحقيبها بحقبة الزراعة إلا وجه من هذه الوجوه التي تحتفي بالزراعة؛ لأنها باب من أبواب الاستقرار والحرص على بناء المدن قرب الحقول للسكنى والحماية<sup>(٣٣)</sup>،

(٣٣) ينظر إلى التطور الحضاري على أنه يبرز في شكل تطور مجاور لأشكال بدائية، ومن ثم فإن أي مظهر من مظاهر التغيير نحو مجتمع =

ومن ثم صادف أن يكون فخذ الجناب غريباً في جمعه بين البداوة سكناً (الخيام)، والحضارة عملاً (الزراعة) وهو ما تعجب منه الرحالة فيما يبدو بدليل الاستدراك (لكنهم) الدال على تبديد المستقر ذهنياً وتبنيه القارئ إلى المختلف فيهم، بل إنهم - وهذا الشاهد الأكبر - يمضون أغلب العام في الصحراء! وإذا كانت الزراعة قليلة في القبائل البدوية فإن الرحالة لم يورد الجانب التجاري للقبائل بما يعد مهنة دائمة<sup>(٣٤)</sup> إلا في موضع واحد عند حديثه عن (الصباح) من قبيلة حرب، إذ دخل الرحالة بلدة (بدر) ورأى الرجال منهم على هذه الهيئة: "وقد رأيتهم يجلسون وسط النهار في دكاكينهم الصغيرة ببدر، حيث يوجد سوق تجاري هناك". وهذه المهنة التجارية وثباتها في دكاكين أمر حضاري لا ينبغي إغفاله في شأن هذا القسم من القبيلة، لكن العجيب يأتي بعد ذلك وهو: "في المساء يركبون إبلهم ليعودوا إلى أسرهم في الصحراء". إنه

---

= مدني وعمراني يعد اتجاهًا حضاريًا بالمقارنة بالمحيط الباقي في شكله القديم. ينظر: مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ص ٣٠٠. وتعد الزراعة شكلاً من أشكال الحضارة لأنها تعوّد الإنسان الانضباط والعمل في انتظار النتائج، ودراسة الأوقات المناسبة للزراعة والجني والإعداد والتخطيط للمستقبل/ البذار القادم. وكلها ممارسات حضارية لا توجد في شكل الحياة القائمة على العراك عند الحاجة أو ترصد المارين وسلبهم.

(٣٤) أقول مهنة دائمة لأن البيع والشراء أمر وارد في الحياة البدوية عند بيع القطعان أو الرواحل أو السلاح، ولكن اللافت هو امتهان البيع والشراء والتجارة في الأسواق بكل ما تدل عليه هذه المهنة من انضباط وحراسة الممتلكات والتوريد والتعامل مع مختلف أفراد القبيلة رجالاً ونساءً وأطفالاً وربما عبيداً وسادةً.

الازدواج نفسه الذي وجدناه في الحنانية، وهو ما يعني أن البعد الحضاري عندهم في مرحلة غير مكتملة بدت بوادره هنا ولا شك أن "بعضهم مقيم إقامة دائمة في بدر"<sup>(٣٥)</sup>.

إضافة إلى العمل لم يغفل الرحالة جوانب التفوق المادي عند القبائل البدوية في الجزيرة العربية، ومن خلال تتبع نصوصه لمست أنه يقرن التفوق المادي والحضاري بالقوة التي تمتلكها كل قبيلة أو فخذ، وملاك تلك القوى: عدد الخيول، وعدد المقاتلين، وعدد البنادق الفتيلية (يبدو أنه لم يجد أسلحة أحدث منها في الجزيرة على الرغم من وجود اختراعات أحدث وقتها)<sup>(٣٦)</sup>. ولا غرابة في عده القوة المادية

(٣٥) الرحلة، ص ٢٢١، ومن رصد التنوع في الأعمال بما يعدّ تقدماً حضارياً نادراً في القبائل البدوية ما وجدته الرحالة عند فخذ الزبيد من حرب في القنفذة وما جاورها، يقول: "ومن قبيلة زبيد كثير من الحاضرة. والمحطة الرئيسة لهم سوق حُلَيْص التجاري وما جاوره من أرض خصبة على مسافة يومين شمال جدة. لكن لأن أرضهم عموماً فقيرة اضطروا إلى البحث عن وسائل أخرى للعيش غير ما قد يحصل عليه من الرعي وحده. وهم نشطاء جداً في ميدان صيد السمك. وكثير منهم بحارة، ويعملون قباطنة للسفن فيما بين جدة وينبع". الرحلة، ص ٣٢٢. نلاحظ هنا تنوع الأعمال بين الرعي وصيد الأسماك، بل المهارة في الإبحار والعمل قباطنة في المراكب، وهذه أعمال غير مسبوقه في قبائل البدو حسبما وجدته الرحالة.

(٣٦) يبدو أن الرحالة لم يشير إلى المدافع لأنها من الأسلحة الثقيلة التي تتوافر في الدولة، وإلا فإن هذا السلاح متوافر ومستعمل في وقت الأئمة السعوديين: عبدالعزيز وابن سعود، فالإمام سعود كان لديه ستون مدفعاً نصفها من المدافع الكبيرة. ينظر: ابن بشر، عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: د. محمد الشثري، دار الحبيب، الرياض، ط٢، ١٤٢٩هـ، ١/٣٢٩.

سبباً في الحضارة وهو القادم من أوروبا التي تشتعل فيها الثورات وميزان القوى فيها متذبذب وتسليح الجيوش بأحدث المدافع والبنادق أمر شائع في تلك الفترة نظراً لوجود الصراعات الموشكة على الاندلاع ووجود النفس الاستعماري عند الدول العظمى مثل إنجلترا وفرنسا<sup>(٣٧)</sup>.

يجتهد الرحالة في جمع معلومات وفرة الخيول وجودتها عند قبائل الجزيرة العربية، ويجعلها في مقدمة الجوانب الحضارية التي تدل على القوة، ففي قبيلة شمر مثلاً يكون الأصل في القوة عدد الخيول، وما يخالف الأصل هو الاستثناء: "لا تملك تلك القبيلة إلا قليلاً من الخيل، لكنهم، على أي حال، قادرون على جمع قوة من ثلاثة آلاف رجل، أو أربعة آلاف، مسلحين ببنادق فتيل"<sup>(٣٨)</sup>. فالخيول تعد نقطة ضعف قبيلة شمر على الرغم من كثرة عدد المحاربين وجودة تسليحهم، وفي هذا دلالة على أن الرحالة يعول كثيراً على الخيول أكثر من الإبل مثلاً، والنص يضطلع بإبراز هذا التعويل من خلال النفي والاستثناء الدال على القلة المؤكدة (إلا القليل) بما يدل على بحث الرحالة واستقصائه، كما أن الخطاب أيضاً يبرز استدراك الرحالة بأن هذه القبيلة يمكن

(٣٧) في عام ١٨١٠ تقريباً وما بعدها حدثت رحلة الرحالة داخل الجزيرة العربية. تنظر: ص ٢٨. وفي هذه الأعوام وقبلها حدثت الثورة الأمريكية والاستقلال والثورة الفرنسية والثورة الصناعية وغيرها من الأحداث العالمية الكبرى. ينظر: الزيدي، د. مفيد، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط ٢، ٢٠٠٩م، ٣/٦٦٠-٦٨٨، ٧٣٦-٧٤٨.

(٣٨) الرحلة، ص ٣١٤.



أن تغزو وفي (قدرتهم) توفير المقاتلين المسلحين/ المدربين. والرحالة هنا يشعرونا بتذبذبه في الحكم على قبيلة شمر بسبب تناقضه في الوصف، فهم قليلو الخيل كثيرو العدد ويوسعهم جمع العدد والقيام بالغزو، والقدرة كلمة أقل دلالة من الإمكان أو حتى الجزم بالعدد فيما لو قال: ومقاتلتهم بين ثلاثة أربعة آلاف من المسلحين بالبنادق<sup>(٣٩)</sup>.

والرحالة حينما يرصد عدد الخيول ويعطيها اهتماماً ظاهراً يؤكد في مناسبة أخرى أن الخيول في الجزيرة عددها قليل، والسبب في قلة المراعي المناسبة؛ كما أن السلالات الموجودة متنوعة وأفضلها ما يوجد في نجد وهي سلالة الخيول الكحيلية. كما أن أكبر حشد من الخيول نما إلى علم الرحالة هو العدد الذي كان مع جيش الإمام سعود بن عبدالعزيز في قتاله مع جيوش محمد باشا وكان عدد الخيول وقتها لا يزيد على خمسمئة<sup>(٤٠)</sup>.

(٣٩) هذا الوضع في شمر اختلف بعد تولي محمد بن رشيد إمارة حائل، فقد وجدت أن بلانت لدى ابن رشيد عدداً من الخيول الأصيلة وعدة اسطبلات يمتلكها الأمير وبعض أفراد الأسرة، وهناك أيضاً خيول المقاتلين من المتطوعين مع ابن رشيد عندما يغزو. ينظر: الحج إلى نجد، ص ٢٢٣. وبين هذا الذي يصفه بوكهارت، والذي وجدته الرحالة بلانت قرابة ٧٠ عاماً، إذ قدمت على حائل في حدود عام ١٨٨٦م. وأشير هنا إلى أن الرحالة أشار أيضاً إلى ندرة الخيول في حرب وأن الخيول لا يمتلكها إلا الشخصيات الكبيرة، وفي قبيلة عتيبة أيضاً خيول (كذا) دون عدد أو مستوى من الكثرة أو القلة. تنظر: الرحلة، ص ٢١٨.

(٤٠) الرحلة، ص ٣٣٥، ويبدو أن بوكهارت لم يستقص جيداً عدد الخيول عند إمام الدولة السعودية، فهذا ابن بشر يذكر في مناقب الإمام سعود أنه امتلك ألفاً وأربعمئة فرس من العتاق بشهادة أحد =

وإذا كان الرحالة مهتمًا بعدد الخيول وجودة سلالاتها في الجزيرة فإنه لم يكن شاذًا عن أهل الجزيرة أنفسهم، فقد كانت الخيول نقطة تفوق، وأسلوب ضغط، ومحل عقاب أيضًا، فالإمام سعود كان يصادر خيل المذنبين والعصاة أو مرتكبي الجرائم إذا ما ثبت تورطهم بما يخل الأمن، وامتلاك الخيل يعني أن يكون صاحبه مستعدًا على الدوام في التطوع مع جيوش الدولة السعودية في معاركها مع العصاة أو المنشقين<sup>(٤١)</sup>.

ومما يتصل بالجانب الحضاري المتعلق بالخيول، فإن القبائل في الجزيرة العربية يعرفون سلالات الخيول وأصالتها، ويصعب بيع الخيول الأصيلة حتى مع المغالاة في أسعارها، بل إن البدو إذا ما أرادوا بيع الخيول فإنهم يعرفون نسبها للمشتريين، وهذا السلوك الحضاري يدل على جانب من التوثيق عميق فاجأ الرحالة كما يبدو من خطابه، والأعجب منه أن البدو حينما يريدون بيع خيولهم خارج الجزيرة العربية في العراق أو الشام فإنهم يصطحبون معهم ما يثبت سلالة الخيل وأصالتها، وهو بُعد توثيقي آخر أعمق دلالة على الجانب الثقافي الشائع في الجزيرة العربية حتى مع الفقر أو قلة التعليم والمعرفة<sup>(٤٢)</sup>.

ومع قيمة الخيول الأصيلة، وتمسك أهلها بها، فإنها لا تقف أمام النسق المتجذر، وقد يتنازل عنها العربي شهامة وسعيًا في حفظ النسق والانتصار له، وفي هذا يسوق الرحالة

= رواد قصره ومعلمي القرآن فيه. ينظر: عنوان المجد في تاريخ

نجد، ١/٣٢٨-٣٢٩.

(٤١) الرحلة، ص ٣٣٦.

(٤٢) الرحلة، ص ٣٤٠.

قصة دالة على ذلك فيقول: "فقد رغب سعود مدة طويلة في أن يشتري فرساً لشيخ من قبيلة شَمَّر. لكن صاحبها رفض أن يبيعها بأي ثمن. وحدث أن شيخاً من عرب قحطان حُكِم عليه بحلق لحيته لجرم ارتكبه. وحين أخرج الحلاق الموسى في حضرة سعود صاح الشيخ قائلاً: «يا سعود تأخذ فرس الشمري عوضاً عن لحيتي؟» فَأَجَلَّت العقوبة، وسُمِح للشيخ أن يذهب ليشتري الفرس، التي كَلَّفته ألفين وخمسمئة دولار، والتي أقسم صاحبها أن أي مبلغ من المال لم يكن ليجعله يُفَرِّطُ بها، ولكنه فعل ذلك لينقذ لحيه نبيل من قحطان"<sup>(٤٢)</sup>.

إن قيمة الخيل وإن كانت مضاعفة لا تقدر بثمن حلق اللحية عقوبة عند شيخ من شيوخ قحطان، والفرس أيضاً لا تباع إلا لإنقاذ هذا الشيخ ولحيته من أن يلحقهما عار العقوبة وإلا لما باع الشيخ الشمري تلك الفرس، إنها تضافر الجهود لحفظ النسق واقتناص فرصة حرص الإمام على تلك الفرس بما جعله يتجاوز عاداته في عدم الشفاعة أو التنازل عن العقوبات المقررة مهما كان العوض. وهنا نجد الرحالة يحفظ النسق برواية الخبر وظروفه وما قام به الشيوخ الثلاثة: الإمام سعود والقحطاني والشمري بتجاوز العادة لحفظ النسق وتجديره وحفظ مكانة القحطاني والعفو عنه. ولعل مما يتعجب منه المتابع لكل هذا الاحتفاء والاهتمام بالخيول وسلالاتها وجمع النواذر منها وعدم التفريط بها أن تكون الخيل أقل قيمة من زينة النساء بحيث يتنازل عنها البدوي

(٤٢) الرحلة، ص ٣٩٩.

لقاء تزيين نسائه وعنايتهن بمظهرهن الجميل، وهو ما يؤكد مكانة المرأة في تلك العصور عند العربي وقيمتها التي تعني بذل الثروة لهن في تحصيل ما يشتهين، فقد رصد الرحالة نسقاً من الأنساق التي تسافر عبر الصحراء من نجد إلى مكة المكرمة تلك الرحلة النسقية التي تجذر العناية بالمرأة على امتداد رقعة الانتقال والسفر حتى إجراء المبايعة والتبادل التجاري/ الحضاري، يقول: "فأصبح مستحباً لدى النساء البدويات اللاتي يذهبن إلى مكة لأداء الحج أن يحضرن معهن فحول خيل أزواجهن هدايا للشريف، الذي يجزيهن مقابل ذلك ملابس حرير وأقراط آذان، وما شابه ذلك"<sup>(٤٤)</sup>.

لقد حكم العرف/ النسق بأن الزينة أهم من القوة إذا ما تعلق الأمر بالمرأة وحقها في الزينة ومنتعة الحياة، هذه الزينة التي يتكرر موسمها كل عام مع حلول الحج، وهو حق للنساء لمقايضة تبدو كأنها هدية لشريف مكة، وهو ما قلل من خيول نجد في تلك الفترة بصورة طوعية ولأجل النساء تحديداً<sup>(٤٥)</sup>.

(٤٤) الرحلة، ص ٣٣٧.

(٤٥) يؤكد أهمية المرأة هنا قياس هذه الحالة من التنازل عن الخيول بصورة الاحتفاء الاحتفالي بميلاد الخيل أكثر من غيره في حفل أسطوري قياساً لإمكانات العربي وقلة عنايته بالتترف في نفسه فما بالك بالحيوان؟ يقول: "ولا يدع البدو، أيضاً، ما تلده الفرس يسقط على الأرض عند ولادته أبداً. بل يتلقونه بأيديهم، ويحيطونه بالشفقة والحفاوة عدة ساعات يقومون في أثائها بغسله وتمطيط أطرافه والتربيت عليه كما لو كان طفل إنسان. وبعد ذلك يضعونه على الأرض، ويراقبون خطواته الصعبة برعاية خاصة؛ مُتكنين - منذ ذلك الوقت - بمزايا رقيقهم الجديد وعيوبه في المستقبل". الرحلة، ص ٣٤٣.

ويمكننا أيضاً أن نستشعر ضياع القيمة النقدية في تلك الفترة، إذ كانت الخيول شكلاً بدائياً للشراء والمقايضة، وكأن البدو يعودون لمرحلة الإنسان الأول الذي يقايض المادي بالمادي بحسب قيمة الذات والآخر وحاجتهما للسلع/ الخدمات<sup>(٤٦)</sup>.

أخيراً مما يدل على الجانب الحضاري في الجزيرة العربية وجود القوانين المدنية التي تضبط الأحوال وتعاقب المخالفين ويجري إقرارها بالقوة، واحترامها بالانصياع والاعتراف، ويتحقق من خلالها الأمان للمسافرين والمتنقلين في الجزيرة وبخاصة نجد، فقد أقر الإمام سعود عدداً من الأنظمة في النزاعات الحاصلة بين طرفين، وعقوبة تلك النزاعات بحسب قسوتها وحدوث جروح بينهما أو دماء، كما أن النظام يحتم على الحاضرين التدخل لفض النزاع، ومن يترك النزاعات الدائرة دون تدخل يعاقب أيضاً لسماحه بتلك المشاجرة أن تستمر، وهي قوانين تشرك العامة في حفظ الأمن وحماية الأنفس وتعد دليلاً على تحضر الأمر والمأمور وحمائتهم لكرامة النفس الإنسانية واحترامها وحفظها. كما أن من القوانين تفعيل الجاه بين القبائل وهو أن يذهب الشيوخ المعتبرون للإصلاح في النزاعات العامة التي تقوم بين القبائل أو المجموعات، وهي نزاعات ممنوعة بطبيعة الحال<sup>(٤٧)</sup>.

يضاف إلى تلك الأنظمة المدنية ما يمكن تسميته قوانين

(٤٦) نجد أن المقايضة أيضاً حاصلة في المنطقة التي حول ينبع والوجه، إذ يقايض الهتمييون حاجاتهم بقطعان الأغنام، ويبادلون السلع البحرية كاللؤلؤ والمحار بحاجاتهم الأساسية من الغذاء، ويبادلون أيضاً الحليب بالقمح. تنظر: الرحلة، ص ٣١١.

(٤٧) الرحلة، ص ٣٩٥-٣٩٦.

الأحوال الشخصية وحفظ الأسرة، فقد عُرف عن الإمام سعود حرصه على حماية الأسرة من الضياع والتفريق، لذا فقد كان الإمام يمنع الحلف بالطلاق، وربما ضرب الرجل الحالف بالطلاق إذا سمعه<sup>(٤٨)</sup>. بل إن الإمام يغضب حينما يتجسس أحد أعوانه على الآخرين في منازلهم ويبلغ عنهم بارتكاب إحدى المخالفات، فقد أبلغه أحدهم أن أناساً في مكة يدخلون الشيعة وقد منعها الإمام، قال له الإمام: وأين وجدتهم يدخلون؟ قال: في منازلهم، فتلا الإمام قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]. ثم أمر بمعاقبة المبلغ لتجسس<sup>(٤٩)</sup>.

لقد وجد الرحالة الكثير من المظاهر الحضارية في الجزيرة العربية، أهمها عنده تلك المقومات الخاصة بالتفوق المادي بين القبائل، في الخيول أو البنادق أو حتى وفرة المحاربين والقدرة على التشكيلات القتالية لرد الاعتداء أو البدء به، كما أنه لم يغفل الجوانب الحضارية الأخرى المتعلقة بأهمية المرأة والأسرة، والقانون المدني الذي نتج عنه الأمن وحفظ الأنفس والأموال والقدرة على التنقل بحرية في مختلف القبائل والأمكنة في ظل الدولة السعودية الأولى وحكم الإمام سعود بن عبدالعزيز رحمه الله. ولعل خطاب الرحالة في ذلك لا يخرج عن عاداته في الاختصار والعموميات إلا ما يتعلق بالعناية بأعداد الخيل وأماكنها والجزم بعدد الخيول

(٤٨) الرحلة، ص ٤٠٢.

(٤٩) الرحلة، ص ٤٠٢. ويبدو أن هذه الحادثة وقعت في حج عام ١٢٢٣هـ

أو ١٢٢٥هـ، حين حج الإمام سعود بن عبدالعزيز في هاتين السنتين

وأمر مناديه أن ينادي بمنع التبناك (الدخان) والأمر بالصلاة. ينظر:

ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/٢٨٨، ٣٠٢.

في الجزيرة العربية وأنها لا تتعدى مقداراً عددياً يقدر بثلاثة آلاف خيل موزعة بين القبائل والدولة السعودية<sup>(٥٠)</sup>.

### ثالثاً: أثر الذات في الآخر

يتميز أدب الرحلة بميزة مهمة قلما تتميز بها الكتابات الأدبية الأخرى، هذه الميزة هي الانفتاح على الآخر وعقد العزم على رسمه ووصفه ومعايشته أيضاً، تبين هذا بعد تأمل قسم لا بأس به من الرحلات قديمها وحديثها، فالرحالة ينطلق في رحلته وهو يؤمن بالوفود على أناس مختلفين عنه اختلافاً كثيراً أو كبيراً، ويعرف مقدماً أحوال البشر في تعاملهم مع الغريب وإمكان المعادة أو التوجس منه، ومن ثم فإنه يفد ولديه بعض المرونة في التعايش وتقبل الرفض الآني، بل ربما كان ميالاً للتعايش التام وترك عاداته مؤقتاً ولباسه أيضاً<sup>(٥١)</sup>.

ينتمي رحالتنا إلى هذا القسم من الرحالة، فقد وفد إلى حلب وتعلم فيها كما ذكر في التمهيد، وقرأ القرآن، وأسلم (حقيقة أو لا هذا لا يغير الحكم الظاهر بالتأثر)، بل رضي أيضاً أن يغير اسمه إلى اسم عربي إسلامي (إبراهيم بن

(٥٠) أذكر هنا بما أوردته في المبحث السابق من أن البنادق الفتيالية تعد أساساً لتسليح الجيوش وعددها مقارب لعدد المقاتلين بما يعني أن وفرتها أكبر بكثير من وفرة الخيول، والحصول على السلاح واقتناؤه ميسور وربما لا يكلف الرجل كبير مال.

(٥١) يعبر عن هذه الممارسة، أعني إتاحة الصوت للمختلف أن يخبر عن ذاته أو أن يمارس اختلافه في النص (بالحوارية)، وعلى هذا المفهوم قام كتاب المبدأ الحواري لباختين. ينظر: تودوروف، تزفيتان، مخيايل باختين، المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ص٩٢.

عبدالله)، وحج إلى مكة المكرمة، ودفن في مقابر المسلمين وعلى قبره شاهد بوفاته واسمه الإسلامي الجديد .

كل هذه التفاصيل تدل على رحالة يقبل الاختلاف وأثره على نفسه، ومن ثم ناسب أن يرتحل في الصحراء لابساً ملابس العرب ومعتماً كوفية عربية تجعله يقترب شكلاً ومظهراً من أبناء القبائل العربية في الجزيرة العربية، هذا فيما يتعلق بالشكل الخارجي والبعد الجسماني/ الظاهر.

أما في التدوين والكتابة فإن التأثر يأخذ شكلاً أكثر مهنية أو بعبارة أخرى أكثر عمقاً من خلال عدد من الأفكار التي تناثرت في الرحلة هنا وهناك، وأول هذه الأفكار الدالة على التأثر إفساح المجال للأسطورة<sup>(٥٢)</sup> أن تنتقل عبر الشفاهي/ المروي بين أبناء القبيلة الواحدة إلى التدوين والحفظ في ذاكرة الجزيرة العربية المكتوبة بأقلام الآخرين، فقد صادف الرحالة بعض الأساطير المتعلقة بقوة القبائل أو تكاثرها أو حفظها للنسق والعرف، ومن ذلك وقوفه على أسطورة قبائل عنزة وسبب كثرتهم الظاهرة وتفوقهم العددي في الجزيرة العربية: "ويعلل البدو تزايد أعداد هذه القبيلة والكثرة الهائلة في ماشيتها بما يأتي:

(٥٢) تعد الأسطورة وكثرتها شكلاً من أشكال بدائية المجتمعات، وهي باختصار الحكاية المروية بشكل جماعي المرتبطة بالعادات أو النسق أو القوة الخارقة تعود إلى زمن قديم غير محدد، وتفسر الأسطورة كيف نشأت حقيقة ما أو كيف صار الواقع واقعاً ماثلاً للعيان. وتمتاز الأسطورة بالانعتاق من الزمن وتألفها من بعض الخوارق أو معارضة النسق التاريخي. ينظر: ألياد، مارسيا، مظاهر الأسطورة، ترجمة: نهاد خياطة، داركنعان للدراسات والنشر، دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ١٠.



إن وائلاً، جدّهم المشهور، تأكّد بمحض الصدفة السعيدة من معرفة ليلة القدر (ليلة الخامس والعشرين أو السابع والعشرين من رمضان)، التي يقبل الله دائماً فيها دعوات البَشَر. ووضع وائل يديه على أجزاء معينة من ناقته ومن جسمه هو، وراح يدعو الله أن يبارك تلك الأجزاء التي وضع يديه عليها، فسمع الله دعواته وقبلها. فَرَزَقَ أسرة كثيرة العدد؛ بنين وبنات، وأصبح أهله أغنياء بتضاعف أعداد الإبل، وهذه القصة تروى، ويعتقد صحتها كل فرد من قبيلة عنزة<sup>(٥٣)</sup>.

لقد سمع الرحالة هذه الأسطورة، وعلقت في ذاكرته حتى رواها بعد انتهاء الرحلة بوصفها ملاحظة من الملاحظات حول البدو، وهذا يؤكد خضوعه للأسطورة وقبوله لها أو قبول روايتها بوصفها تفسيراً للواقع الذي رآه، واقع الكثرة العددية لقبائل عنزة وكثرة ما لديهم من الماشية والإبل.

وهذه الأسطورة تتضمن كل مكونات الأساطير التي ينقلها الإنسان عن أسلافه، اللجوء للقوة العُليا، وهي هنا قوة الدعاء والتضرع لله سبحانه وتعالى، وحضور التوقيت المناسب الذي يرجع للحظ في معرفة أين تكون ليلة القدر، والقدرة على الاختصار في الطلب وشمول الدعوة للنفس والمال.

وإذا كانت الأسطورة قصة موغلة في الزمن القديم دون وضوح في وقتها أو حقبتها، فتلك الأسطورة تتميز بأنها تكتسب القبول من أفراد القبيلة/ النتيجة، ومن ثم تضمن الأسطورة بقاءها من خلال الناقل المحتفي بسبب وجوده

المحافظ على تلك القصة التي تعد بمنزلة الدعاية للذات، والتفسير للتفوق، والموقرة للجد الأكبر/ المتفضل بالدعاء/ الدعوة، والأصل الأصيل الذي استثمر الفرصة للحصول على التفوق العددي والمادي، ونجح في ذلك باستجابة ربانية. ولنعد إلى الخطاب المنجز في نقل الأسطورة لنجد الرحالة يؤكد وجود الحظ، ويتحرى الدقة في الوصف (أجزاء محددة، أجزاء معينة)، والتأكيد على الحضور القوي للأسطورة في المخيال الجمعي (تروى ويعتقد صحتها كل فرد)<sup>(٥٤)</sup>. ومن تأثر الرحالة نفسه ما أشار إليه صراحة حول إقامة الصلاة ومعاقبة المتخلفين عنها، يقول: "وعقوبة إهمال الواجبات الدينية صارمة جداً، وقد سبق أن ذكرت عقوبة تارك الصلاة"<sup>(٥٥)</sup>.

لقد خضع الرحالة للعقوبة بعد أن ادعى الإسلام وخضع للنظام الإسلامي، وهذا يعد تأثراً مضاعفاً من جهتين: اختيارية وإجبارية، وإلى هذا يعزى ادعاء الرحالة للإسلام وقيامه بالحج، الخوف من العقاب أولاً، والرغبة في الوصول إلى عمق الحياة في الجزيرة العربية ثانياً لتحقيق الجانب الإثنولوجي لرحلة قدم وفي عزمه أن يكون كذلك.

(٥٤) من القصص المخالفة للمعتاد وقد لا يصدق عليها وصف الأسطورة قصة الشيخ القحطاني الذي ارتكب ما يوجب عقابه بحلق لحيته، فاستطاع أن يفترق من ذلك بأن يعد الإمام سعود بن عبدالعزيز بخيل شيخ من شيوخ شمر، تلك الفرس التي أبا الشيخ الشمري أن يبيعه بأغلى الأثمان، ثم رضي ببيعها لحماية لحية الشيخ القحطاني وحماية النسق المشيخي من أن يمس بعقوبة. الرحلة، ص ٣٩٩.

(٥٥) الرحلة، ص ٤٠١.

## الخاتمة:

انطلقت في هذا البحث في رحلة مع الرحالة بوركهارت الذي طاف وطوّف في الجزيرة شمالاً وغرباً ووسطاً، وأجمل ملحوظاته حول الذات، وتجاوز الحديث عن الحواضر في الأغلب إلا من مس خفيف لا يعدو كونه إشارة إلى الوجود وبعض الأعمال المختلفة عن أعمال البادية.

وقد خلصت بعد ذلك إلى عدد من النتائج، من أهمها:

- ١- عموم الخطاب الوصفي عن الذات، ورؤية الذات في مجموعها وكأن المسألة مسألة جرد ومسح مكاني أكثر من كونه مسحاً اجتماعياً أنثروبولوجياً، بمعنى آخر الإنسان يرد بوصفه شاغلاً المكان لا أن المسح يهدف لمعرفة الإنسان الذي يسكن المكان.
- ٢- لا ترد المرأة في الخطاب إلا قليلاً، بما يناسب طبيعة البدو وأهل الجزيرة العربية وتعاملهم مع الغريب/ الرجل، كما أن هذا الغريب يطوف البلاد دون محاولة جادة في التداخل والمخالطة أو التفاعل وإقامة العلاقات، وهو ما يؤكد أهمية الرحلات التي تكتبها النساء، وهي قليلة، وقد أشرت إلى إحدى تلك الرحلات في تضاعيف البحث.
- ٣- الملمح الإيجابي للرحلة فيما يتعلق بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحاولة إنصاف الدعوة وتتبع سبب الممارسات الخطأ إن وجدت.
- ٤- العناية بمظاهر القوة في القبائل، وأهمها عند الرحالة الخيول وعددها، وكذلك البنادق وعدد المقاتلين.

٥- رصد مظاهر التفوق الحضاري المتعلقة بالنظام والعرف والنسق المتبع بين القبائل، والمحافظة على مكونات المجتمع القبلي بحفظ الأسرة، ومعاينة الاعتداء، وحفظ الأمن، واحترام الحرية الشخصية عند الاستتار عن الأنظار.

٦- الرحالة في غالب الرصد يبين عن رجل متفهم للاختلاف، محافظ على وجهة نظره المحايدة قدر الإمكان، فلا يصرح برأيه في المواقف إلا ما يتعلق بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وحديثه فيها حديث مطلع على المذاهب الفقهية وهو ما يؤكد التقاء بأحد العلماء وتبنيه لرأي العالم خصوصاً في المسائل العميقة في الفقه أو العقيدة مما لا يؤمن به الرحالة أو ربما لا يفهمه.

٧- تأثر الرحالة بالذات في مظهره الخارجي، بل إنه يعرف نفسه بأنه مسلم واسمه إبراهيم بن عبدالله، وقد أدى فريضة الحج، واستمع لأسطورة الذات المكرسة للنسق والحافظة لتاريخها، ونقلها نقلاً أميناً مبرزاً شيوع تلك الأسطورة بين أفرادها المستفيدين.

وختاماً فإن رحلات الآخر إلى الذات نافذة مهمة للوقوف على تاريخ هذا الوطن العريق، ومظهر من مظاهر التأمل في نعم الله علينا وحدة وأمناً ووفرة في الرزق والمعرفة، بما يستوجب على الإنسان التفكير والتأمل والإشادة وبحث أسباب البقاء والتمكين.